



العقل العربي

43

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الحادي عشر الفن، الموسيقى، الأدب

ناقشنا، في ما سبق، إهمال العرب لأهمية الواقع والميل إلى التمسك بالبنى الخيالية. وفي ما يأتي سوف نرى كيفية التعبير عن هذا الميل في الفنون البصرية عند العرب. وكيف أن الميزات الأبرز التي ترسم ملامح الفن العربي تحصل أيضا في مجالي الموسيقى والأدب.

1. فنون الديكور

فنون الديكور من المجالات التي يظهر فيها بشكل صارخ إهمال العرب أهمية الواقع لمصلحة الخيال. وفي الحقيقة، عندما يتعلق الأمر بإبداع الفنان العربي يكون مصطلح (فنون الديكور) نوعا من التكلف اللغوي، فالفنون البصرية العربية جميعها ديكورية (تزيينية)، إلا في بعض الحالات النادرة جدا التي تكون فيها تمثيلية (تصويرية). ويبدو الحال هنا وكأن أحداث الواقع جميعها تبدو لعقل العربي المسلم ذات طبيعة مؤقتة إلى حد يجعل ما تمثله بشكلها الفني دون معنى. صحيح أن التقاليد الإسلامية تحرم التمثيل البصري لأي كائن حي، والإنسان بخاصة، ولكن الاهتمام العربي الشديد بهذا النوع من الفنون أدى إلى تجاهل التحريم، وذلك مشابه لما فعله الفنانون الآخرون في تركيا وبلاد فارس وباقي البلاد الإسلامية غير العربية. وأينما ظهر سبب خاص يدعو إلى عصيان الأحاديث التي تحذر من التصوير، كانوا يهملونها بشكل كامل، أو في أفضل الأحيان كانوا يضيفون إشارة سطحية تشير إلى أن الشكل المصنوع أو المرسوم لم تكن النية من إنشائه أن يكون تمثيلا للإنسان أو حيوان. ولهذا كانت تصنع بعض الثقوب في أجسام الأشكال والدمى المستعملة في عروض خيال الظل أو مسرح الدمى من أجل إبداء نوع من الاحترام لتلك التقاليد. وإن لم يكن الأمر متعلقا بإهمال العرب للواقع، لكان الفنانون العرب، دون شك، وجدوا طريقة مشابهة للقفز على تلك التقاليد وتجاهلها، ولكانوا أنشؤوا فنا تمثيلا (تصويريا).

الفصل الحادي عشر: الفن، الموسيقى، الأدب

وإذا ما تركنا جانبا التكهانات المتعلقة بماذا حصل بالفعل، فإن الحقيقة هي أن الفنانين العرب اختاروا أن يعبروا عن إبداعهم من خلال فنون الديكور. فهنا كان الفنان حرا مما يرى بأنه حدود يفرضها الواقع. ولم تكن مهمته تتعلق بتقليد لقطات من الأشكال التي تحيط به، وإنما بتجاهلها وفسح المجال لخياله كي يلهو فيختلق أشكالا وأنماطا لا معنى لها إلا في فكرة يحملها في ذهنه، أو خيال يأمل في تحوله إلى واقع. أو مفهوم يفوق في تعقيده وتناغمه وكماله أي شيء يمكن أن يوجد في الطبيعة. مثل هذا المفهوم يمكن له أن يدوم على حجر أو صلصال أو خشب أو معدن أو أي مادة أخرى بينما تتلاشى الأشكال الطبيعية التي لا تتصف بالكمال والدوام.

وتوجد نقطة أخرى يعاكس فيها الفنان العربي الطبيعة: وهي التصرف الدائم المتمثل في تكرار الوحدات الفنية المستعملة لإنجاز عمل فني متكامل. ففي الطبيعة لا توجد تركيبة مكونة من عناصر متماثلة تشكل نمطا كبيرا (كما نلاحظ في الزهرة التي تتكون من نمط موزع دائريا لبتلات متماثلة). وإنما تتصف الظواهر الطبيعية بوجود تنوع هائل من الأشكال والأجزاء التي تتجاور جنباً إلى جنب دون ارتباط شكلي أو تنظيم تكراري. ويرى العربي هذه الظاهرة باعتبارها مظهراً آخر لانعدام الكمال في الأشكال الطبيعية ويمارس عمله في اتجاه معاكس تماماً، فيختار ما لا يوجد في الطبيعة محورا لعمله: تكرار وحدات أو أجزاء صغيرة نسبياً ولكنها معقدة، وترتيبها في نمط ديكوري كبير تبعاً لمبادئ هندسية معينة. وهكذا، يكون للعمل الفني العربي جانبان منفصلان ولكنهما مترابطان:

1. فعندما تقترب منه يتكون لديك لأول وهلة انطباع عن الترتيب الشامل. وهذا يعطيك إحساساً بكتلة منظمة.
2. وإذا نظرت عن قرب تتمكن من ملاحظة وجود وحدة أو وحدات فنية أساسية يتكون منها مجموع العمل الفني. فتجذب دون إرادة منك لتستغرق في العلاقات المتبادلة الرابطة في ما بين الأجزاء المتماثلة، وفي ما بين الأجزاء المختلفة، وفي ما بين

الفصل الحادي عشر: الفن، الموسيقى، الأدب

الأجزاء والعمل الفني ككل.

وبالتحريم المسبق لاستعمال شكل الجسم البشري أو الحيواني حتى وإن كان لغرض تزييني، لم يبق للفن العربي غير ثلاثة عناصر يبني عليها أعماله: وهي النبات والهندسة والخط العربي. أما عنصر النبات فاعتمد على شكل كرمة العنب بشكل أساسي وجاء على أنساق مختلفة: متموجة، حلزونية، دائرية. وكان مصطلح (أرابيسك) يشير حصريا إلى النقوش التي تعتمد شكل الكرمة ذات الأوراق المسننة. وذلك على الرغم من أن هذا المصطلح يستعمل من قبل دارسي الفن الإسلامي باعتباره يشير إلى عدد كبير من النقوش الديكورية الإسلامية الأخرى أيضا. وفي نقلة تبدو وكأنها عزوف عن الشكل «الطبيعي» للعنصر الفني النباتي، انتقل فن العصور الوسطى عند العرب إلى نقطة اقتراب بها من التجريد الخالص: إذ تم التخلص من كافة الأشكال التي تشبه النباتات الحقيقية، واستعيض عنها بالأشكال الهندسية.

وقد وصل الفنانون العرب باستعمال الأشكال الهندسية إلى قمة إنجازاتهم. وذلك بدءا من استعمال عدد من الأشكال الهندسية الأساسية، كالدائرة والمربع والمستطيل والصليب المعقوف ولوح الشطرنج والخط المتعرج، وانتهاء بأشكال شديدة التعقيد والتفاصيل، كما طوروا تصاميم مختلفة شديدة التنوع باستخدام مفاهيم مجردة. وهذه التصاميم تجعلك معجبا بإنجازهم الخارق المستند إلى إبداع فني تحدده النمطية الهندسية المنطقية.

وتمكن ملاحظة استخدام العرب للخط العربي أكثر من العنصرين السابقين. إن اللغة العربية تتحدى شيئا من مهارة الفنان في استخدام بعض الأشكال الرئيسية لتنفيذ العمل وذلك لأنها لغة فيها الكثير من الأصوات. تتألف اللغة العربية من 28 حرفا صائتا تكتب باستخدام 12 شكلا (ا، ح، د...)، وتم التغلب على هذا التحدي الكتابي من خلال المزج بين الأشكال (ط، س...) أو بالتنقيط (ج، ش، ض...). وكل نوع من أشكال الخطوط، سواء أكان

الفصل الحادي عشر: الفن، الموسيقى، الأدب

الكوفي بزواياه وضخامته أم النسخي بانحناءاته ومرونته. يستعمل بأنواع مختلفة ودرجات مختلفة من التنميط الإضافي. وذلك باعتباره أداة ديكورية. وخاصة في الهوامش الأفقية لأطراف الأبواب وأعلى الجدران (الأفاريز) وقواعد قبب المساجد. أو في تزيين المزهرات والأطباق وما إلى ذلك. وتكون النصوص المستعملة في هذه التزيينات مستقاة في العادة من آيات القرآن؛ وبالنسبة لذوقي الخاص: أرى أجمل تلك التزيينات عندما تكون على البلاط مكتوبة على أرضية زرقاء بحروف بيضاء. وعلى العكس من النمط الهندسي ذي الأنماط المتكررة. ليس للنمط المعتمد على الخطوط العربية تكرارات بفواصل متساوية وذلك لأنه يعتمد على جمل عربية حقيقية. فهو يستعمل الأنماط المحدودة للحروف العربية في تكرار ليس له فواصل متساوية. وعلى الرغم من ذلك، يتمتع هذا النمط بإيقاع داخلي، على العكس من الإيقاع الخارجي في النمط الهندسي. وهو أمر لا تخطئه عين متأمل العمل الفني أو العارف بالآيات المكتوبة. وما يبدو من سلسلة أفقية لا تنقطع من الحروف إنما هي في الحقيقة مقطعة إلى أجزاء. وهذا التقطيع يكون وفق إيقاع معين ولكن دون فواصل محددة. فبعض الأحرف يمكن تطويل وصلاتها (ل. ك. ط. ل...). وبعض الأحرف تعطي الشكل نبرة معينة بأجزائها التي تنزل تحت السطر (ر. ز. و).

في كل ما سبق الكلام عنه. أنجز الفنان العربي نصرا في مستوى التصور والفكرة والخيال على الواقع الرتيب للأشكال الطبيعية. وأنشأ تقليدا فنيا عظيما كان. وما زال. منفصلا عن الطبيعة بشكل تام. ونتاجا خالصا للعقل والإرادة الفنية المحضة. وبما أن الفنان العربي عاش وعمل في بيئة دينية. وأن الهدف الرئيسي لسعيه كان في تجميل وإثراء القنوات التي يحاول المسلم من خلالها أن يقترب من الله. ليس هنالك من عجب في أن الإبداع الفني كان يعتبر أكثر من كونه خدمة لله والإنسان؛ إذ كان تقليدا لعمل الله على مستوى صغير ومتواضع. فهو مشابه له ولكن دون نسخ للطبيعة التي خلقها الله. وإنما استعمال ما وهبه الله من تصور وأفكار لعمل شيء من لا شيء.